

الحلقة الخامسة

امراة العزيز وضيوفها يدعون يوسف للفاحشة
يوسف يتضرع إلى مولاه ليصرف عنه كيدهن
يوسف فى السجن يفسر الأحلام
يوسف يدعو إلى توحيد الله
تحقق تفسير يوسف للأحلام

الآيات القرآنية التي صيغ منها شعر الحلقة الخامسة

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣٤) ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٣٨) يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٠) يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبُّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (٤٢) .

أشعار الحلقة الخامسة

- ١ مع يوسف الصديق لازلنا جميعاً ذاهبين
- ٢ مع قصة عصماء فى أحداثها ، هذا يقين
- ٣ الحق فيها صار مهزوماً أمام المبطلين
- ٤ فلنستمع لضراعة الصديق حتى نستبين
- ٥ يرجو الإله فإنه المرجو للمتضرعين
- ٦ يارب من كيد النساء فإننى فى الخائفين
- ٧ السجن خير من حياة فى عداد الفاسقين
- ٨ يارب فاصرف كيدهن ، فإننى عبد أهين
- ٩ إن لم تُجب لضراعتى ، فقد انهزمت وأستكين
- ١٠ وأبوء بالخسران ، ثم أعد بين الجاهلين
- ١١ رب السماء يجيب للمضطر بين الضارعين
- ١٢ قد كان يوسف فى ضراعته صدوقاً إذ بين
- ١٣ رب السماء أجابه ، هو ناصر المستضعفين
- ١٤ أنجاه من كيد النساء ، فإنه كيد متين
- ١٥ الظلم طبع كامن فى نفس بعض الحاكمين
- ١٦ وعزيز مصر فلم يكن مثل الرجال الخازمين
- ١٧ عرف الحقيقة مثل ضوء الشمس عند المبصرين
- ١٨ لكن تجاهلها ومال إلى فعال الظالمين
- ١٩ قد أودعوا الصديق سجناً مظلماً كالمجرمين
- ٢٠ رحماك رب العرش بالصديق نسل الأكرمين
- ٢١ من كيد إخوته نجى ، قد كان من حقد دفين
- ٢٢ والآن فى كيد جديد ، صار فى سجن مهين
- ٢٣ يا ابن الكرام فأنت فى عين العناية عن يقين
- ٢٤ السجن مكتوب عليك فلا تكن فى الساخطين
- ٢٥ فاصبر على البلوى تَفَرُّ بالمجد بين الخالدين
- ٢٦ قد كان قبلك أنبياء فلم يكونوا مترفين

- ٢٧ لاقوا من الأهوال ما قد فاق وصف الواصفين
- ٢٨ اثنان دخلا معه سجن الظالمين المفتريين
- ٢٩ فى السجن قد لاقى رجالاً صادقين وكاذبين
- ٣٠ عرفوه ذا خلق كريم من سلاله صالحين
- ٣١ أنسوا به وقد اطمأنوا أنه رجل فطين
- ٣٢ السجن تكثر فيه أحلام لكل النازلين
- ٣٣ ونبوة الصديق ، تأويل الرؤى للحالمين
- ٣٤ فأبوه بشره بهذا قبل عشرات السنين
- ٣٥ لما رأى الرؤيا التى أودته للذل المهين
- ٣٦ فى السجن صار يفسر الأحلام بالقول الأمين
- ٣٧ هذا السجين رأى مناماً ، وهو بين النائمين
- ٣٨ فأتى إلى الصديق قال له : أتيتك أستبين
- ٣٩ إنى رأيت الخمر أعصرها لأجل الشاربين
- ٤٠ ماذا ترى ؟! إنى أحس براحة المستبشرين
- ٤١ أما الأخير فقال : جئت لأسمع القول المبين
- ٤٢ إنى رأيت الخُبْزَ أَحْمَلُهُ لأجل الآكلين
- ٤٣ الطير تأكل منه كانوا كثرة للناظرين
- ٤٤ هيا فأخبرنى ، فإنك فى عداد المحسنين
- ٤٥ هذا هو الصديق يسدى نصحه للسامعين
- ٤٦ هى فرصة للنصح حتى لا يظلموا جاهلين
- ٤٧ يدعوا إلى التوحيد بالحسنى وبالقول المبين
- ٤٨ إن يأتكم رزق ، فذا أدريه قبلاً عن يقين
- ٤٩ ذاكم لأن الله علمنى من العلم المكين
- ٥٠ إنى تركت القوم ما كانوا بحق مؤمنين
- ٥١ كفروا بدين الله ما كانوا يبعث موقنين
- ٥٢ لاشك هم يوم القيامة فى عداد الخاسرين
- ٥٣ وسلكت درب السابقين من الجدد الأولين
- ٥٤ درب الخليل ونسله ، كانوا هداة مهتدين
- ٥٥ يدعون للتوحيد أهل الجهل ثم المشركين

- ٥٦ الله يعطى فضله من شاء كونوا فاهمين
 ٥٧ والناس أكثرهم على النعماء ليسوا شاكرين
 ٥٨ يا إخوة السجن اسمعوا قولى وكونوا مدركين
 ٥٩ إن تؤمنوا بتعدد الأرباب لستم راشدين
 ٦٠ الله رب الخلق ليس له شريك أو معين
 ٦١ هو واحد ، هو قادر ، هو قاهر لا يستكين
 ٦٢ فلقد عبدتم دونه أسماء صنع الآدمين
 ٦٣ أنتم كذا آباؤكم كنتم جميعاً جاهلين
 ٦٤ كل الذين عبدتموهم دون رب العالمين
 ٦٥ لا يملكون النفع أو ضرراً لكل العابدين
 ٦٦ والناس أكثرهم فليسوا للحقيقة عارفين
 ٦٧ من بعد ذلك قال يوسف : إذ يجيب السائلين
 ٦٨ عما رأى الساقى فقال : نجوت من سجن لعين
 ٦٩ فلفسوف تخرج من ظلام السجن والمستضعفين
 ٧٠ والخنز تسقىها العزيز ، وتغتدى فى الأمنين
 ٧١ عما رأى الخباز قال : كأنه وحى مبين
 ٧٢ إنى أراك تموت صلياً ، بشى صلب المجرمين
 ٧٣ والطير تأكل رأسك المصلوب أكل الجائعين
 ٧٤ قد تمت الفتوى ، وتم القول كونوا مدركين
 ٧٥ من بعد ذلك قال للساقى : مقال السائلين
 ٧٦ اذكر لدى مولاك شأنى ، فهو لاه عن يقين
 ٧٧ إنى سجنْتُ بغير ذنب ، علّه أن يستبين
 ٧٨ ساقى المليك غدا طليقاً ، فى عداد الأمنين
 ٧٩ لكنه نسى الوصية صار فى المتشاغلين
 ٨٠ إن الذى أنساه شيطان يضل الذاكرين
 ٨١ قد ظل يوسف قابلاً فى السجن بضعا من سنين
 ٨٢ قالوا : فتلك عقوبة ، من عند رب العالمين
 ٨٣ لسؤاله الساقى فهذا ليس للمتوكلين

يوسف يهرع إلى مولاه ضارعا

-
- مع يوسف الصديق لازلنا جميعاً ذاهبين ١
مع قصة عصماء فى أحداثها ، هذا يقين ٢
الحقّ فيها صار مهزوماً أمام المبطلين ٣
فلنستمع لضراعة الصديق حتى نستبين ٤
يرجو الإله فإنه المرجو للمتضرعين ٥

ها نحن أولاء نواصل الحديث عن يوسف الصديق ، متابعين أحداث قصته بكل الاهتمام ، ولا غرو فهى قصة فريدة فى أحداثها وظروفها وملابساتها ، لذلك نالت اهتمام الباحثين قديماً وحديثاً ، ومرجع الاهتمام بها هو : كون طرفى الخصومة فيها ، أو أبطال القصة ، من مشاهير شخصيات المجتمع آنذاك : فالمرأة أحد طرفى الخصومة ، هى امرأة العزيز ، أى رئيس وزراء مصر كما قيل ، والطرف الثانى ، هو يوسف الصديق خادم المرأة ، أو فتاها فى ظاهر الأمر . . بيد أنه فى الوقت نفسه مساو للمرأة فى الشهرة ، لكونه خادمها وطرفاً فى القضية معها ، إذاً فشهرته مستمدة من شهرتها .

وشتان ما بين شهرة وشهرة فشهرتها هى أنها امرأة خائنة ، خانت زوجها ولوثت شرفه وهو من هو ، من حيث المسئولية والجاه والسلطان . . أما شهرة يوسف الصديق ، فهى الشرف والعفة والطهارة ، شاب فى عنفوان الشباب والفتوة ، عفاً وأبى أن يأتى الفاحشة ، وحافظ على شرف سيده الذى آواه فى بيته وأكرم مثواه .

إن يوسف بسلوكه هذا ، أبان عن معدنه الأصيل الذى ينزع به إلى آباء كرام ، لكونه الرابع فى السلسلة الذهبية ، من آل بيت النبوة . . فهو يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحاق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله!!

والواقع أن الناس منذ نزول القرآن الكريم ، إلى وقتنا هذا ، يقرأون أو يستمعون سورة «يوسف» بشغف ، وبعد قراءتها أو الاستماع إليها ، يدور الحديث بين السامعين عن أحداثها التى سجلها القرآن الكريم وحيّاً يتلى على سمع الدنيا كلها . . ولا غرو فهى تحكى قصة خالدة . . بطلاها يمثّلان خطين متناقضين تماماً .

أحدهما : يوسف الصديق ، يمثل الإيمان والطهارة والعفة فى أسمى وأروع الصور .
الثانى : امرأة العزيز ، تمثل الفجور والمجون والانحلال فى أعلى الصور .

ومع هذا فقد انتصر صوت الباطل الذى تمثله امرأة العزيز الماجنة . . وهزم صوت الحق الذى يمثله يوسف الصديق ، سليل النبوة !!

ولنعد إلى جوهر الموضوع الذى طالما أجهد الباحثين قبلنا ، فكما أسلفنا ، فقد التف النساء حول يوسف الصديق ينصحنه بالاستجابة لما عرضته عليه سيدته ، وهن فى الوقت نفسه ، قد ألقين أقنعة الحياء ، فصار حديثهن يدور حول الجنس صراحة دون كناية .
ولا إخالك أخى القارئ الكريم - حفظك الله من كل سوء - قد غاب عن خيالك الواعى ، منظر النسوة حين التففن حول يوسف . . كيف كان حالهن؟!

لقد رأى يوسف نفسه بين جمع من النسوة ، قد تحللن من كل وازع دينى أو خلقى ، فحيثما التفت وقع نظره على امرأة قد كشفت عن جزء من جسدها ، توشك أن تلتهمه بنظراتها ، بل تريد أن تحتويه بين ذراعيها . . هنالك شعر يوسف فى أعماقه بشئ من الضعف الإنسانى قد انتابه ، فخشى على نفسه أن ينهار أمام هذا الحشد من الإغراءات التى تحيط به .

من ثم اتجه إلى مولاه ، هاتفاً من أعماقه بأصدق ضراعة ، مناجياً رب السماء والأرض ، لانه أهل للرجاء ، وهو الذى قال : « ادعوني أستجب لكم » .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] وهو سبحانه وتعالى يجيب المضطر إذا دعاه .

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل : ٦٢] .

قال الفخر الرازى حول هذا المعنى :

كان قد حصل فى يوسف عليه السلام ، جميع الأسباب المرغبة فى تلك المعصية ، وهو الانتفاع بالمال والجاه ، والتمتع بالمتكوح والمطعوم ، وحصل فى الإعراض عنها جميع الأسباب المنفرة .

ومتى كان الأمر كذلك ، فقد قويت الدواعى فى الفعل ، وضعفت الدواعى فى الترك ، فطلب من الله سبحانه وتعالى ، أن يحدث فى قلبه أنواعاً من الدواعى المعارضة النافية لدواعى المعصية ، إذ لو لم يحصل هذا المعارض ، لحصل المرجح للوقوع فى المعصية ، خالياً عما يعارضه . . وذلك يوجب وقوع الفعل ، وهو المراد بقوله تعالى :
﴿ أَصْبَأْ إِلَيْهِمْ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

يوسف يفضل السجن على مقارفة الفاحشة

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾

وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٢) ﴿

يارب من كيد النساء فإننى فى الخائفين ٦
السجن خير من حياة فى عداد الفاسقين ٧
يارب فاصرف كيدهن ، فإننى عبد أهين ٨
إن لم تُجب لضراعتى ، فقد انهزمتُ وأستكين ٩
وأبوء بالخسران ، ثم أعد بين الجاهلين ١٠

لقد لجأ يوسف الصديق إلى مولاه ضارعاً ، أن ينقذه من هذا الموقف الذى خشى على نفسه فيه من الانهيار ، أما إغراءات النساء اللاتى أحطن به من كل جانب ، كل واحدة منهن تريد منه ما أرادته امرأة العزيز من قبل .. فمن ثم هتف قائلاً : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ .

ولنقرأ معاً ما كتبه الأستاذ رشيد رضا فى هذا المعنى :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ أى قال : أى ربى الغالب على أمرى ، العالم بسرى وجهرى ، إن الحبس والاعتقال فى السجن ، مع المجرمين حيث شظف العيش ، أحب إلى نفسى ، وأثر عندى على ما يدعوننى إليه هؤلاء النسوة ، من الاستمتاع بهن فى ترف هذه القصور وزيتها ، والاشتغال بحبهن عن حبك ، وبقربهن عن قريبك ، وبمغازلتهم عن مناجاتك .. واسم التفضيل هنا لا مفهوم له ، أو على غير بابه كما يقال : فليس المراد أن ما يدعوننى إليه ، محبوب عندى ، والسجن أحب إلى منه ، وإنما معناه أن هذين الأمرين ، إذا تعارضا وكان لابد من أحدهما ، فالسجن أثر وأولى بالترجيح ؛ لأن ما فيه من المشقة ، له فائدة عاجلة ، وعاقبة صالحة ، وأما مجاهدة هؤلاء النسوة ، مع المكث معهن ، فهو أشق على المؤمن العارف بربه ، وليس له من الفائدة والعاقبة ما للسجن فهو - أى اسم التفضيل - من قبيل قول المحدثين فى بعض الأحاديث الضعيفة : هو أصح ما فى هذا الباب .

وقيل : يجوز أن يكون المراد من التفضيل ، ترجيح الأحب بمقتضى الإيمان وحكم الشرع ، على المحبوب بمقتضى الغريزة وداعية الطبع ، فإن الأنبياء والصلحاء ، كسائر البشر ، يحبون النساء ، ويشتهون الاستمتاع بهن ، ولكنهم يكرهون أن يكون من غير الوجه المشروع . . إلخ ما قاله تفسير المنار ج١٢ .

ويواصل يوسف الصديق ضراسته إلى خالقه العظيم ، بأن يتداركه قبل أن يضعف ويستسلم ، قبل أن يفرق في تيار الشهوات ، الذى تهفو إليه نفوس البشر ، لاسيما الذين هم فى غضارة الشباب مثل يوسف الصديق . . يارب إن لم تنقذنى من كيدهن بقدرتك ، فإننى ضعيف وأخشى على نفسى الانقياد لهن ، ومن ثم أكون من الخاسرين وأعد بين الجاهلين .

قال الفخر الرازى فى تفسيره :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٢) .

اعلم أن المرأة لما قالت ﴿وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجُنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (٣٢) فعند ذلك اجتمع فى يوسف ﷺ ، أنواع من الوسوسة :
أحدها : أن زليخا كانت فى غاية الحسن .

ثانيها : أنها كانت ذات مال وثروة ، وكانت على عزم أن تبذل الكل ليوسف ، بتقدير أن يساعدها على مطلوبها .

ثالثها : أن النسوة اجتمعن عليه ، وكل واحدة منهن كانت ترغبه وتخوفه بطريق آخر ، ومكر النساء فى هذا الباب شديد .

رابعها : أنه عليه السلام كان خائفاً من شرها ، وإقدامها على قتله وإهلاكه ، فاجتمع فى حق يوسف جهات الترغيب على موافقتها ، وجميع جهات التخويف على مخالفتها ، فخاف عليه السلام أن تؤثر هذه الأسباب القوية الكثيرة فيه ، واعلم أن القوة البشرية ، والطاقة الإنسانية ، لا تفى بحصول هذه العصمة القوية ، فعند هذا التجأ إلى الله تعالى وقال : ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ .

وفيه سؤالان : السؤال الأول : السجن فى غاية المكروهية ، وما دعونه إليه فى غاية المطلوبية ، فكيف قال المشقة أحب إلى من اللذة؟! .

الجواب : أن تلك اللذة كانت تستعقب آلاماً عظيمة ، وهى الذم فى الدنيا والعقاب

فى الآخرة ، أما المكروه وهو اختيار السجن ، فيستعقب سعادات عظيمة ، وهى المدح فى الدنيا والثواب الدائم فى الآخرة ، فلهذا السبب قال : ﴿ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ ﴾ .

السؤال الثانى : أن حبسهم له معصية ، كما أن الزنا معصية ، فكيف يجوز أن يحب السجن مع أنه معصية؟! .

الجواب : تقدير الكلام أنه إذا كان لابد من التزام أحد الأمرين : أعنى الزنا أو السجن ، فهذا أولى ، لأنه متى وجب التزام شيئين كل واحد منهما شرّاً فأخفهما أولاهما بالتحمل . . قال تعالى : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أمل إليهن ، يقال : صبا إلى اللهو يصبو صبواً إذا مال .

استجابة الله لضراعة يوسف

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣٤)

رب السماء يجيب للمضطر بين الضارعين ١١
 قد كان يوسف فى ضراسته صدوقاً إذ بين ١٢
 رب السماء أجابه ، هو ناصر المستضعفين ١٣
 أنجاه من كيد النساء ، فإنه كيد متين ١٤

إن الإنسان حينما تنزل به نازلة، أيا ما كان نوعها ، فعليه أن يتخذ الأسباب المادية المتاحة لدفعها .. حتى إذا ما استنفد كل ما هو مستطاع من الأسباب ، ولما تنكشف تلك النازلة ، فعليه حينئذ أن يلجأ إلى خالق الأسباب والمسببات ، فليلجأ إلى مولاه ، يتضرع إليه ليكشفها عنه .

من ثم سوف يبادر الله بالاستجابة لضراسته ، ويكشف الضر عنه ، وما ألم به ، وذلكم كان شأن يوسف الصديق ، مع امرأة العزيز أول الأمر ، حينما دعت لارتكاب الفاحشة قال : معاذ الله .. لقد رفض دعوتها دونما أدنى تردد أو تفكير .

وها هو ذا الآن مع جمع من النسوة ، كل واحدة منهن تريد منه ما أرادته امرأة العزيز من قبل .. ولا غرو فكل واحدة منهن كانت متجملة ، بحيث بدت فى أبهى وأحسن ما يمكن أن تكون ، وكل منهن تبدى مفاتها إمعاناً فى إغراء يوسف واستمالته .

ولا ينبغي أن ننسى أن يوسف بشر ، وفى ريعان الشباب ، وللاحتمال البشرى حدود .. وهو فى وضعه الذى نتحدث عنه ، فى موقف لا يقاوم ، ومن ثم فهو عرضة للاستسلام ، لذلك هرع إلى مولاه بأصدق مناجاة ، وقد كان مولاه معه ، يسمع ويرى .. ويعلم الصدق منه .. فاستجاب لضراسته ، فصرف كيدهن عنه .

ولنقرأ معاً ما كتبه الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه «القصص القرآنى ..»

قال :

« وسرى كيف صرف الله تعالى السوء عن يوسف ، وبم صرفه ؟! »

فى السجن حصن الأمان :

لقد كان مما اختاره يوسف لنفسه ، فراراً من الوقوع فى الفتنة ، السجن الذى تهددته به امرأة العزيز ، إن هو لم يستجب لها، حين قالت فى وجهه : ﴿ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمْرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (٣٢) لقد اختار البلاء مع الاحتفاظ بدينه ، وخلقه ، ومروءته ، على العافية فى نفسه، ومع الإفساد لدينه ، وخلقه والسقوط بمروءته إلى أن قال :

لقد كان السجن هو الصارف الذى صرف الله تعالى به هذا الكيد ، الذى يراد بعبد من عباده المخلصين ، فلقد عزله هذا السجن عزلاً تاماً عن موطن الفتنة ، وباعد بينه وبين مهابها التى تهب عليه منها .

قال القرطبى فى تفسيره : « فاستجاب له ربه » وكأنه قال : اللهم اصرف عني كيدهن ، فاستجاب له دعاءه ولطف به ، وعصمه من الوقوع فى الزنا « كيدهن » قيل : لأنهن جمع قد راودنه عن نفسه ، وقيل : يعنى كيد النساء ، وقيل : يعنى كيد امرأة العزيز ، على ما ذكر فى الآية والعموم أولى .

عزيز مصر يأمر بإيداع يوسف فى السجن

الظلم طبع كامن فى نفس بعض الحاكمين ١٥
وعزيز مصر فلم يكن مثل الرجال الخازمين ١٦
عرف الحقيقة مثل ضوء الشمس عند المبصرين ١٧
لكن تجاهلها ومال إلى فعال الظالمين ١٨

من واقع دراسة التاريخ ، لاسيما تاريخ الحكام والملوك ، فإن الظلم يقع منهم على الآخرين ، وهو دائما ينسب إليهم ، ويواكب مسيرة حياتهم خلال مدة حكمهم . . ولا غرو فمنهم من يظلم لأن الظلم يشيع نهمة ، ويملا فراغ نفسه ، ويغذى غروره وكبريائه ، فهو يشعر بسعادة غامرة حينما يرى ضحاياه ، عاجزين ، مستضعفين ، يجارون بالشكوى ، فهذا أشر الحكام .

ومنهم من يظلم فى لحظة ثورة غضب ، فإذا ما هدأت ثورة غضبه ، عاد إليه صوابه ، فمن ثم بادر إلى رفع الظلم عن ظلمهم .

ومنهم من يظلم لكونه لم يستطع أن يكون عادلا ، وذلك لتأثير واقع عليه ، من جهة أخرى هى أقوى منه ، لضعف فى شخصيته . . ويبدو أن عزيز مصر كان من الصنف الأخير !! ذلك لأنه عرف الحقيقة من واقع الحال . . لقد عرف أن يوسف برىء من الدعوى الباطلة التى ادعتها عليه المرأة . . وأن المرأة هى التى راودته عن نفسه .

يا لله !! لقد وضحت الحقيقة أمام عزيز مصر ، وضوح الشمس فى رابعة النهار ، ومع ذلك تجاهلها . . فبدلاً من أن يضع الحق فى نصابه ، فينصف يوسف ، ويعيد إليه الطمأنينة التى افتقدها ، فى هذا الموقف الرهيب الذى يقفه ، فى مواجهة الخائنة ، أمر بإيداعه فى غياهب السجن ، ولم يكتف بذلك ، بل قال له : إياك أن تتفوه بكلمة واحدة عن هذا الأمر لأحد من الناس .

أليس هذا هو الظلم بعينه ؟! بلى ، إنه لظلم صارخ . . ومن ثم فقد ظلم يوسف فى هذا الأمر مرتين : مرة حينما اتهمته المرأة أنه راودها عن نفسها ، كذباً وافتراءً ، والثانية حينما تبين العزيز براءته ، ثم أمر بإيداعه السجن .

وبرغم هذا ، فلم يعترض يوسف على قرار عزيز مصر الظالم . . بل قبله راضياً ، ذلك لأن السجن فى تصويره ، كان حصن الأمان له ؛ لينجو من كيد امرأة العزيز ، والنسوة الأخريات .

يوسف فى السجن ظلما

﴿ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) ﴾

قد أودعوا الصديق سجنًا مظلماً كالمجرمين ١٩
رحماك رب العرش بالصديق نسل الأكرمين ٢٠
من كيد إخوته نجا ، قد كان من حقد دفين ٢١
والآن فى كيد جديد ، صار فى سجن مهين ٢٢

فى بيت العزيز ، تمت مشاورات ، وحدثت مناقشات ، تتعلق بمصير يوسف الصديق ، ويبدو أن مجلس الشورى الذى كان مجتمعاً لمناقشة تقرير مصير يوسف ، كان فيهم من يعترض على إلحاق الضرر بيوسف ، بيد أنه صوت ضعيف فيما يبدو ، أو ربما كانوا جميعاً يفكرون فى مصير يوسف ، وأخيراً اهتموا إلى أن قرروا إيداعه السجن لفترة ما ، وبعد ذلك قد يرون رأياً آخر بشأنه .

وهكذا ، فالأقدار تسير فى فلك القدرة الإلهية ، ومن ثم فهى لا تتفق مع مفاهيم البشر ، ولا غرو فإخوة يوسف كادوا له ، وهموا بقتله حقداً عليه ، ثم تراجعوا عن فكرة القتل ، استجابة لرأى أحدهم ، إلى فكرة أخرى أخف من القتل ، فألقوه فى الحب ، لكن العناية الإلهية تداركتهم ، فنجوا على يد أحد وراد القافلة التجارية .

وها هو ذا الآن فى محنة جديدة .. إنه طرف فى خصومة ، طرفها الآخر شخصية لها خطورتها فى المجتمع .. إنها امرأة عزيز مصر .

لقد ادعت المرأة أنه راودها عن نفسها .. وبعد البحث والتحري والتحقيق ، تبين للعزيز وبطائته ، براءة يوسف الصديق ، مما نسبته إليه تلك المرأة ، وبرغم هذا ، فقد قرروا إيداعه السجن .. !!

يا لله !! لقد أظلمت نفوس القوم ، عن رؤية الحق ، وبمعنى أدق ، لقد رأوا الحق ، لكنهم بخلوا به ، أن يعطوه لأهله .. !!

فبدلاً من أن يكرمه عزيز مصر ؛ لكونه صان عرضه فى غيبته ، وتمسك بالفضيلة

والشرف، عاقبه بالسجن .. إنه منطق معكوس .

وبهذا نستطيع أن نقول : إن الظلم يلزم يوسف منذ طفولته ، ويلاحقه أينما حل وسار ، ويواكب مسيرة حياته .. هذا فيما يبدو للناس ، بيد أنه كان فى منطق الأقدار، طريقه إلى المجد ، والجاه ، والسلطان ، والنبوة فيما بعد .

قال الفخر الرازى فى تفسيره : ﴿ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنَهُ حَتَّىٰ حِينَ (٢٥) ﴾ البدء عبارة عن تغير الرأى عما كان فى الأول .

والمراد من الآيات ، براءته بقدر القميص من دُبر ، وخمش الوجه ، وإلزام الحكم إياها بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ وظهرت أنواع آخر من الايات ، بلغت مبلغ القطع ، ولكن القوم سكتوا عنها ، سعيًا فى إخفاء الفضيحة .

لسان حال الكون يواسى يوسف

يا ابن الكرام فأنت فى عين العناية عن يقين ٢٣
السجن مكتوب عليك فلا تكن فى الساخطين ٢٤
فاصبر على البلوى تفز بالمجد بين الخالدين ٢٥
قد كان قبلك أنبياء فلم يكونوا مترفين ٢٦
لاقوا من الأهوال ما قد فاق وصف الواصفين ٢٧

فى هذه الآيات، نسمع لسان حال الكون ينادى يوسف الصديق، مواسياً له فى محنته، فيذكره بأن هذا البلاء الذى أصابه، لم يكن قد أصابه صدفة أو خبط عشواء، لا، بل هو مكتوب عليه، فلا يتبرم بالقضاء ولا يسخط، وعليه أن يصبر، لأن الصبر من الإيمان . ولا غرو فللصابرين عاقبة حسنة، فى الدنيا وفى الآخرة .

أما عاقبة الصبر فى الدنيا، فهى وصف الصابرين بالعقل الراجح والحكمة، وأكثر الرجال شهرة فى التاريخ، هم الذين صبروا على مرارة المصائب التى نزلت بهم، ولا يزال الناس يتناقلون قصصهم بكل استحسان وإعجاب . . حتى فى ميادين القتال، فإن أكثر الخصمين صبراً، يكون الأجدر بإحراز النصر .

وأما عاقبته فى الآخرة، فهى الفوز بدخول الجنة . لقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤَفِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر ١٠] وتلك لعمر الله أسمى ما تتطلع إليه نفوس المؤمنين .

ها نحن أولاء لا نتصور لسان حال الكون يخاطب يوسف الصديق فيقول: هيه يا يوسف؛ يا ابن الأكرمين! أنت لست أول المبتلين فى هذه الدنيا . . فلقد سجل التاريخ فى صفحاته، ما لاقاه عظماء الرجال من الأهوال، وما نزل بهم من المصائب، لاسيما الذين اصطفاهم واختارهم لحمل أعباء رسالاته .

ولا غرو فأنت نبي مرسل يا يوسف، والأنبياء فى كل الأزمان، عرضة للابتلاء، فطريقهم ليس مفروشاً بالورد، وحياتهم لا تعرف الراحة والدعة، وليس فى حياتهم ترف، بل هى حياة الجهاد والصبر والمصابرة، بحيث يعجز البيان عن تصوير ما لاقوه من أهوال، فصبروا وصمدوا حتى حققوا ما أرسلوا من أجله .

فعليك أن تتأسى بإخوانك الأنبياء الذين سبقوك، الذين أودوا فى سبيل الله فصبروا، ثم رحلوا عن هذه الدنيا، فلقوا ربهم وهو عنهم راض .

يوسف فى السجن بين المجرمين

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَان ﴾

اثنان دخلا معه سجن الظالمين المقتربين ٢٨
فى السجن قد لاقى رجالاً صادقين وكاذبين ٢٩
عرفوه ذا خلق كريم من سلالة صالحين ٣٠
أنسوا به وقد اطمأنوا أنه رجل فطين ٣١

فى اليوم الذى سبق فيه يوسف الصديق ظلمًا ، إلى السجن ، كان معه اثنان ، دخلا معه السجن ، فى نفس اليوم ، ولذلك ذكرهما القرآن الكريم فقال : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَان ... ﴾ والفتى مشتق من الفتوة ، وهو الذى يوصف بالجرأة والإقدام والحزم أيضًا ، ويتمتع بحيوية الشباب .

أخيرًا : استقر يوسف الصديق فى غياهب السجن ، بين معتادى الإجرام والبراءة معًا ، والصادقين والكاذبين ، والخبيثين وحسنى النية . . إنه السجن الذى يجمع الأخلاط من الناس ، من كل أنواع ومعادن البشر .

يبد أن يوسف الصديق ، سرعان ما أثبت وجوده بين نزلاء السجن ، لقد تبينوا فطنته ، ورجاحة عقله ، أدركوا أنه معدن طيب ، هو غريب على مجتمع السجون ، ليس من نوع معتادى الإجرام ، بل تبينوا أنه من سلالة آباء كرام ، ولا غرو فكثير من المجرمين فيهم فراسة قلما تخطئ فى الحكم على الآخرين .

فمن ثم أنسوا به ، لكونهم وجدوا عنده ما يفتقدونه فى أنفسهم ، فصاروا يفضون إليه بأسرارهم ، ويستشيرونه فى أهم أمورهم وأخطرها .

قال القرطبى فى تفسيره : « واستأنس به أهل السجن ، فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس فى السجن مع يوسف ، وأحبه صاحب السجن ، فوسع عليه ثم قال له : يا يوسف ! لقد أحبيتك حبًا لم أحب شيئًا حبك ، فقال يوسف : أعوذ بالله من حبك ، قال : ولم ذلك؟! فقال : أحبنى أبى ، ففعل بى إخوتى ما فعلوه . . وأحبتنى سيدتى ، فنزل بى ما ترى » .

وقال ابن كثير : « ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن ، تألفا به وأحباها حبًا شديدًا وقالوا له : والله لقد أحبيناك حبًا زائدًا قال : بارك الله فيكما ، إنه ما أحبنى أحد إلا دخل على من محبته ضرر ، أحبتنى عمتى فدخل على الضرر بسببها ، وأحبنى أبى فاوذيت بسببه ، وأحبتنى امرأة العزيز فكذلك ، فقالا : والله ما نستطيع إلا ذلك . . » .

يوسف يحبه نزلاء السجن

السجن تكثر فيه أحلام لكل النازلين ٣٢
 ونبوة الصديق ، تأويل الرؤى للحالمين ٣٣
 فأبوه بَشَّرَهُ بهذا قبل عشرات السنين ٣٤
 لما رأى الرؤيا التى أودته للذل المهين ٣٥
 فى السجن صار يفسر الأحلام بالقول الأمين ٣٦

مما لا شك فيه ، أن ليس ثمة شئ أحب إلى نزلاء السجن ، من الحرية ، فاسمى ما تتطلع إليه نفس السجين هو : أن يبارح أسوار السجن اللعينة . . تلك الأسوار التى تحد من حركته ، وتقيد من خطوته ، كل نزلاء السجن دون استثناء ، ينشدون الحرية . . إذن فليس غريباً أن تكون معظم أفكار السجناء ، تدور حول اليوم الذى ينعمون فيه بالحرية . . فلا غرو أن يكون ذلك اليوم هو : حلم يقظتهم .

ومن المعروف علمياً أن معظم أحلام الناس فى نومهم ، تكون ترجمة للأعمال اليومية التى يباشرونها فى يقظتهم ^(١) ، سواء أكانت أعمالاً فكرية أو جسمية . لذلك ، فإن نزلاء السجن تكثر أحلامهم ، فيصبح الواحد منهم يقص ما رآه فى نومه على الذين معه ، عساه يجد فيهم من يشره ، بأن فى رؤياه ما يوحى بقرب انبلاج فجر حريته . . ونبوة يوسف الصديق هى : تأويل الأحاديث ، والأحاديث هى : ما يراه الناس فى المنام ، وهى معجزة له ، فإنه لم يلحقه فيها خطأ .

لقد بشره أبوه بهذه البشارة ، وذلك حينما قص رؤياه المشهورة عليه ، تلك الرؤيا التى أثارت عليه حقد إخوته ، فكادوا له ، وهموا بقتله ، ثم اكتفوا بإلقائه فى الحب . . وقد خرج من الحب إلى بيت العزيز رقيقاً . . وأخيراً إلى السجن مظلوماً .

وبشرى يعقوب لولده هى فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ﴾ الخ الآية .

عاش يوسف الصديق حياته الجديدة بين نزلاء السجن كل صباح يجلس بينهم ، يفسر لهم ما قد رأوه من رؤى وأحلام فى نومهم . . وكما ذكرنا آنفاً فهو الذى لم يلحقه خطأ فى تفسير الرؤى . . لأن تفسير الأحلام معجزة له كما قيل .

(١) روى عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : « الرؤيا ثلاثة : منها أهوئيل الشيطان ليحزن ابن آدم ، ومنها ما بهتم به فى يقظته فيراه فى منامه ، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة . . » تفسير القرطبي .

أحد النزلاء يحكى ليوسف رؤياه

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾

هذا السجين رأى مناماً ، وهو بين النائمين ٣٧
 فأتى إلى الصديق قال له : أتيتك أستبين ٣٨
 إني رأيت الخمر أعصرها لأجل الشاربين ٣٩
 ماذا ترى ؟! إني أحس براحة المستبشرين ٤٠

برغم كثرة الرؤى التى فسرهما يوسف الصديق ، لنزلاء السجن ، إذ لا يمر يوم دون أن يفسر فيه ، رؤيا أو أكثر .

إلا أن اثنين من النزلاء رأيا منامين ، فسرهما يوسف ، فلم يخطئ تفسيره لهما من الحقيقة شيئاً . . ولا غرو فالقرآن الكريم لم يذكر الرؤى الكثيرة التى فسرهما يوسف ، لنزلاء السجن ، سوى رؤيا هذين الفتيين ، هما ساقى الملك وخبازه .

جاء أحدهما فقال له : إني رأيت رؤيا ، فاعبرها لى . . وقيل : كان يوسف قال لنزلاء السجن: إني أعبر الأحلام . قال يوسف للرائى: خيراً، فما ذا رأيت؟! قال: رأيت نفسى أعصر خمرًا - أى عنبًا - قال القرطبي فى تفسيره : « قيل : إن أحد الفتيين قال لصاحبه : تعالى حتى نجرب هذا العبد العبرانى ، فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئاً . . هذا قول ابن مسعود .

وقال الطبرى: لقد سألاه عن علمه فقال: إني أعبر الرؤيا ، فسألاه عن رؤياهما . . قال ابن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق رأياها، وسألاه عنها ، ولذلك صدق تأويلها . . وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «إن أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً» . . وقيل : إن المصلوب منهما كان كاذباً ، والآخر كان صادقاً .

وقال ابن عباس: لما رأيا رؤياهما، أصبحا مكرويين، فقال لهما يوسف : مالى أراكما مكرويين؟! قالوا : يا سيدنا ! إنا رأينا ماكرهنا ، قال : فقصاً علىّ، فقصا عليه» .

قال الفخر الرازى : قال مجاهد : كانا قد رأيا حين دخلا السجن رؤيا ، فأتيا يوسف ﷺ فسألاه عنها، فقال الساقى : أيها العالم ، إني رأيت كأنى فى بستان ، فإذا بأصل عنبه حسنة فيها ثلاثة أغصان ، عليها ثلاثة عناقيد من عنب ، فجنيتها وكان كأس الملك بيدى فعصرته فيه وسقيتها الملك فشربه ، فذلك قوله تعالى : « إني أرانى أعصر خمرًا » .

الفتى الثانى يقص رؤياه على يوسف

﴿ وَقَالَ الْآخِرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ

الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٦)

أما الأخير فقال : جئت لأسمع القول المبين ٤١
إنى رأيت الخُبْزَ أَحْمِلُهُ لأجل الآكلين ٤٢
الطير تأكل منه كانوا كثرة للناظرين ٤٣
هيا فأخبرنى ، فإنك فى عداد المحسنين ٤٤

ما إن انتهى الفتى الأول - ساقى الملك - من قص رؤياه على يوسف الصديق ، حتى تقدم الفتى الثانى - الخباز - فقال : أنا أيضاً ، رأيت رؤيا ، فاعبرها لى ، فانت رجل تبدو على محياك سمات الخير والصلاح .

قال له يوسف : خيراً رأيت ؟! هات ما عندك ! قال: رأيت كأنى أحمل فوق رأسى خبزاً ، وقد اجتمعت الطيور - وقد كانت كثيرة - تأكل من الخبز الذى كان على رأسى . هذه الرؤيا أيها السيد ، جعلتنى أهتم بها دون غيرها ، برغم كثرة الرؤى التى رأيتها قبلاً - وهى كثيرة - بيد أننى لا أكاد أذكر منها شيئاً . . ذلك لأننى بعد أن أستيقظ من نومي أنساها تماماً .

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٦) . أى إن الذى حملنا على سؤالك، وقص رؤيانا عليك، هو اطمئناننا إليك، واستئناسنا بك ، واعتقادنا فيك الخير ، فضلاً عن الصدق الذى عرفناه عنك ، فهات أيها الصديق ما عندك ، من تأويل الأحاديث ، فماذا ترى تأويلاً لرؤياى ، فإننى مشغول بها كثيراً؟! .

ولا إخالك - فيما أعتقد - تخطئ معناها وتفسيرها ، وذلك مما يبدو عليك واضحاً ، فى سمعتك ، وفى سلوكك ، وفى أخلاقك . . أخلاقك التى نلت بها إعجاب كل نزلاء السجن دون استثناء .

والواقع أننا لم نعهد عليك الكذب قط . . فليس غريباً أن تكون عالماً بتفسير الرؤى . قال البيضاوى فى تفسيره: وقال الآخر: أى الخباز: «إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه - تنهش منه - نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين» من الذين يحسنون تأويل الرؤيا، أو من العالمين، وإنما قالوا ذلك لأنهما رأياه فى السجن يذكر الناس، ويعبر رؤياهم ، أو من المحسنين إلى أهل السجن ، فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه .»

يوسف يكشف عن قدرته العلمية

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾

هذا هو الصديق يسدى نصحه للسامعين ٤٥
 هى فرصة للنصح حتى لا يظلوا جاهلين ٤٦
 يدعو إلى التوحيد بالحسنى وبالقول المبين ٤٧
 إن يأتكم رزق ، فذا أدريه قبلاً عن يقين ٤٨

لقد انتهى الاثنان من قص رؤياهما على سمع يوسف الصديق، الذى استمع لهما، وهو يزن كل كلمة من كلام كل منهما. . ولم لا ؟!

فهو يسمع بأذنيه ، ثم يفكر بعقله ، ثم يستعمل علمه وفراسته ، فى حل رموز ومعانى الكلمات ، وفى النهاية يصدر قوله الذى يراه مناسباً ، ومتمشياً مع أحداث الرؤيا التى قُصَّت عليه .

ولا غرو فتأويل الأحلام ، ليس علماً ذا قواعد يرجع إليها المفسر ، وإنما هو فراسة يمنحها الله لبعض عباده الذين يتصدون لتفسير الأحلام.

ولا غرو فالمفسر له أكثر من وسيلة ، لمعرفة تفسير الرؤيا التى تُقَصُّ عليه، منها: أنه يرى فى شخص الرائي جزءاً من تفسير رؤياه ! ومنها أيضاً :

الثقافة الواسعة ، والإلمام بأخبار السابقين ، ومعرفة الأمثال ، كل هذه الوسائل يستعملها المفسر فى تفسير الأحلام مع حفظ القرآن الكريم، ومعرفة الأحاديث الشريفة. . هذه كلها وسائل ينبغى أن تتوفر فى الذى يتصدى لتفسير الأحلام، أما يوسف الصديق ، فقد آتاه الله علم تأويل الأحاديث!!

بعد أن استمع يوسف للاثنين ، اغتنم فرصة احتياجهما له ، واعتباره فى نظرهما واعظاً ، أو معلماً ، فقال لهما :

﴿ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ... ﴾

أراد أن يدعوهما إلى توحيد الله ، ويرشدهما إلى الطريق القويم ، قبل أن

يخبرهما بتفسير رؤياهما ، وهذا لعمر الله منتهى الذكاء ، إذ قدم لهما ما يريده ، قبل أن يعطيها ما يريدانه .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه « القصص القرآني . . . » .

فهذا مما عند يوسف من علم ، إنه لا يعرف تأويل الأحلام وحدها ، ولا ينبئ عن الغائب بالتوسم في وجه الشاهد وحسب ، بل إنه يخبر عن الغائب الذي لا يرى الناس منه شاهداً أو دليلاً ، إنه يخبر عن الطعام الذي سيأتيهما من خارج السجن ، اليوم ، أو غداً ، أو بعد غد ، إلى ما شاء الله من أيام مقبلة ، وهذا العلم هو مما كان لعيسى ﷺ كما يقول سبحانه على لسان عيسى لبنى إسرائيل :

﴿ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

[آل عمران : ٤٩]

يوسف يدعو إلى توحيد الله

﴿ ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٣٧)

ذاكم لأن الله علمني من العلم المكين ٤٩
إني تركت القوم ما كانوا بحق مؤمنين ٥٠
كفروا بدين الله ما كانوا يبعث موقنين ٥١
لاشك هم يوم القيامة في عداد الخاسرين ٥٢

ويستطرد يوسف الصديق ، مواصلاً حديثه إلى الاثنين ، فيلفت أنظارهما إلى شيء هام هو : وحدانية الله عز وجل ، والاعتراف بربوبيته ، والتفاني في عبادته وطاعته ، ثم يضرب لهما مثلاً حياً عنه هو شخصياً فيقول : ﴿ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا . ﴾ .

- وهذه منزلة عظيمة ، أتدرون كيف وصلت إليها ؟! ﴿ ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ .
- لأنني أعبد الله وحده ، ولا أعبد رباً سواه ، فمن ثم منحني علم التأويل ، هو علم بعيد عن التكهن والتنجيم والسحر ، وإنما هو نورانية يقذفها الله في قلب كل مخلص في عبادة مولاه .

ثم أردف قائلاً : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ .
قال البيضاوي في تفسيره هذه الآية : « تعليل لما قبله ، أي علمني ذلك لأنني تركت ملة أولئك » ، وقال ابن كثير في تفسيره هذه الآية : « عن ابن عباس قال : ما أدري لعل يوسف كان يعتاف - يتنبأ بواسطة علامات يعرف بها ذلك - وهو كذلك .

يخبرهما يوسف ﷺ أنهما مهما رأيا في نومهما من حلم ، فإنه عارف بتفسيره ، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ، ولهذا قال : ﴿ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ .

قال القرطبي في تفسيره : « وكان هذا من علم الغيب الذي خص به يوسف ، وبين أن الله خصه بهذا العلم لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، يعنى دين الملك .

ومعنى الكلام عندي : العلم بتأويل رؤياكما ، والعلم بما يأتيكما من طعامكما ، والعلم بدين الله ، فاسمعوا أولاً ما يتعلق بالدين لتهتدوا ، ولهذا لم يعبر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام» .

قال الفخر الرازي في تفسيره : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أى لست أخبركما على جهة الكهانة والنجوم ، وإنما أخبركما بوحي من الله ، وعلم حصل بتعليم الله ، ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ .

فيه مسألتان :

المسألة الأولى : لقائل أن يقول : فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ توهم أنه ﷺ ، كان فى هذه الملة .

فتقول : جوابه من وجهين :

الأول : أن الترك عبارة عن عدم التعرض للشيء وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضاً فيه .

الثانى : وهو الأصح : أن يقال : إنه ﷺ كان عبداً لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد ، ولعله قبل ذلك ، كان لا يظهر التوحيد والإيمان خوفاً منهم ، على سبيل التقية ، ثم إنه أظهره فى هذا الوقت ، فكان هذا جارياً مجرى ترك ملة أولئك الكفرة بحسب الظاهر .

المسألة الثانية : تكرير لفظ « هم » فى قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ لبيان اختصاصهم بالكفر ، ولعل إنكارهم للمعاد أشد من إنكارهم للمبدأ ، فلأجل مبالغتهم فى إنكار المعاد ، كرر هذا اللفظ للتأكيد .

واعلم أن قوله تعالى : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ إشارة إلى علم المبدأ وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ إشارة إلى علم المعاد ، ومن تأمل فى القرآن المجيد ، وتفكر فى كيفية دعوة الأنبياء عليهم السلام ، علم أن المقصود من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، صرف الخلق إلى الإقرار بالتوحيد وبالمبدأ أو المعاد ، وأن ما وراء ذلك عبث .

يوسف يذكر فضل الله على آبائه

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٨) .

وسلكت درب السابقين من الجدود الأولين ٥٣
درب الخليل ونسله ، كانوا هداة مهتدين ٥٤
يدعون للتوحيد أهل الجهل ثم المشركين ٥٥
الله يعطى فضله من شاء كونوا فاهمين ٥٦
والناس أكثرهم على النعماء ليسوا شاكرين ٥٧

ها نحن أولاء لا نزال مع يوسف الصديق ، وهو يواصل حديثه إلى الاثنين اللذين قصا عليه رؤياهما، إنه يسدى لهما النصيحة الثمين ؛ ليؤمننا بالله الواحد الأحد الذى لا معبود فى الكون بحق سواه .

ومن خلال نصحه لهما يغتنم فرصة إصغائهما لحديثه ، فيتحدث عن نفسه، وعن آبائه : إبراهيم وإسحاق ويعقوب .. فهؤلاء كانوا أنبياء مرسلين ، وقد أفنوا حياتهم فى الدعوة إلى توحيد الله .

ومع هذا فهو لم ينس أن يتبرأ من الشرك، هو وآباؤه الأولون .. ثم يردف قائلاً : ذلك هو فضل الله يعطيه من يشاء من عباده ، وقد كان لنا نحن - أى إبراهيم وذريته - النصيب الأوفى من ذلك الفضل الذى امتن الله به على عباده ، ولكن معظم الناس يجحدون نعم الله ، فلا يؤدون الشكر لما منح النعم .

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قال ابن كثير فى تفسيره هذه الآية : يقول : هجرت طريق الكفر والشرك ، واتبعت الطريق القويم على نهج آبائى وأجدادى - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى ، واتبع المرسلين ، وأعرض عن طريق الظالمين ، فإنه يهدى قلبه ما لم يكن يعلمه ، ويجعله إماماً يقتدى به فى الخير ، وداعياً إلى سبيل الرشاد .

﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ هذا هو التوحيد - وهو الإقرار بأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أى أوحاه إلينا ، وأمرنا به ، ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أى لا يعرفون نعمة الله عليهم ، بإرسال الرسل إليهم بل ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (٢٨) [إبراهيم] .

يوسف يناقش النزلاء في توحيد الله

﴿ يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٣٩)

يا إخوة السجن اسمعوا قولي وكونوا مدركين ٥٨
إن تؤمنوا بتعدد الأرباب لستم راشدين ٥٩
الله ربُّ الخلق ليس له شريكٌ أو معين ٦٠
هو واحدٌ ، هو قادرٌ ، هو قاهرٌ لا يستكين ٦١

لا يزال يوسف الصديق يتحدث إلى الفتيين اللذين قصصاً عليه رؤياهما ، ولا غرو فبرغم أنه يتحدث إلى الاثنين ، إلا أن حديثه كان موجهاً إلى كل المصريين آنذاك ، ذلك لأنهم كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة . . وربما كان مع بعض نزلاء السجن ، آلهة من أصنامهم يعبدونها على طريقتهم ، وهذا ما حدا بيوسف أن يقول لهم جميعاً : ﴿أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ . هذه الآلهة التي تعبدونها ، هي من صنع أيديكم ، وبالتالي فهي لا تسمع ولا تبصر ، ولا تنفع ولا تضر .

أهى خير أم الله الواحد القهار ، خالق السموات والأرضين ، والشجر والدواب والطيور ، وخلق الناس جميعاً . . هذه المخلوقات كلها ، أفلا تدل على وحدانية الله ، وعظمته وهيمته وقدرته ، وأنه قادر قاهر . . ولا ينبغي أن يكون له شركاء في ملكه .

قال ابن كثير فى تفسيره هذه الآية : ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ . . .﴾ إلخ . ثم إن يوسف أقبل على الفتيين بالمخاطبة ، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان التى يعبدها قومهما فقال : ﴿أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٩) الذى ولى كل شىء بعز جلاله ، وعظمة سلطانه .

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ﴾ أى يا ساكنى السجن ، وذكر الصحبة لطول مقامها فيه كقولك : أصحاب الجنة وأصحاب النار ﴿أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ أى فى الصغر والكبر والتوسط ، أو متفرقون فى العدد ﴿خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ .

وقيل : الخطاب لهما ولأهل السجن ، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله تعالى ، فقال ذلك : إلزاماً للحجة ، أى آلهة شتى لا تضر ولا تنفع ﴿أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ . الذى قهر كل شىء نظيره ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمْ يُشْرِكُونَ﴾ وقيل : أشار بالترق إلى أنه لو تعدد الإله ، لفرقوا فى الإرادة ، ولعلا بعضهم على بعض ، وبين أنها إذا تفرقت لم تكن آلهة .

يوسف يندد بما يعبده الناس من دون الله

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢١)

فلقد عبدتم دونه أسماء صنع الآدمين ٦٢
أنتم كذا آباؤكم كنتم جميعاً جاهلين ٦٣
كل الذين عبدوهم دون رب العالمين ٦٤
لا يملكون النفع أو ضرراً لكل العابدين ٦٥
والناس أكثرهم فليسوا للحقيقة عارفين ٦٦

ها نحن أولاء لا نزال مع يوسف الصديق، وهو يتحدث إلى الفتيين اللذين قصا عليه رؤياهما ، ناصحاً لهما ، مبيّناً خطأ معتقدهما ، لا همّاً الاثنان فحسب ، وإنما كل الذين هم على شاكلتهما لاسيما آباءهم وأجدادهم الذين ورثوا عنهم هذا المعتقد الخاطئ.

ثم يردف قائلاً : إن الآلهة التي تعبدونها من دون الله ، ليس لها أدنى وجود أو حقيقة إلا في عقولكم أنتم . . في حين أن العبادة لا ينبغي أن تكون إلا لله الواحد الأحد ، الذي لم يلد ولم يولد ، وليس له شريك في ملكه . . هذا هو الدين الحقيقي الذي ارتضاه المولى عز وجل لكل خلقه ، بيد أن الناس معظمهم لا يعلمون الحقيقة .

قال ابن كثير في تفسيره هذه الآية ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ إلخ ثم بين لهما - أي يوسف - أن التى يعبدونها ويسمونها آلهة ، إنما هو جهل منهم ، وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلفهم عن سلفهم ، وليس لذلك مستند من عند الله ، ولهذا قال : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى حجة ولا برهان.

ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه، ثم قال : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى هذا الذى أدعوكم إليه من توحيد الله ، وإخلاص العمل له ، هو الدين المستقيم الذى أمر الله به ، وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . أى فلهذا كان أكثرهم مشركين .

قال البيضاوى فى تفسيره : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ خطاب لهما ولمن على دينهما

من أهل مصر ﴿ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى الأشياء باعتبار أسامى أطلقتم عليها من غير حجة تدل على تحقق مسمياتها ، فيها ، فكأنكم لا تعبدون إلا الأسماء المجردة، والمعنى أنكم سميت ما لم يدل على استحقاقه الألوهية عقل ولا نقل آلهة ، ثم أخذتم تعبدونها باعتبار ما تطلقون عليها ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ ﴾ فى أمر العبادة ﴿ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ لأنه المستحق لها بالذات من حيث أنه الواجب لذاته ، الموجد لكل والمالك لأمره ﴿ أَمْ أَرَأَى أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ على لسان أنبيائه، الذى دلت عليه الحجج ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ الحق وأنتم لا تميزون المعوج من القويم ، وهذا من التدرج فى الدعوة والنزاع الحجة ، بين لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة . . . إلخ ما قال .

تعبير رؤيا الأول ، الخروج من السجن

﴿ يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾

من بعد ذلك قال يوسف : إذ يجيب السائلين ٦٧
عما رأى الساقى فقال : نجوت من سجن لعين ٦٨
فَلَسَوْفَ تَخْرُجُ مِنْ ظُلَامِ السِّجْنِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ ٦٩
وَالْخَمْرَ تَسْقِيهَا الْعَزِيزُ ، وتغتدى فى الآمين ٧٠

لقد تحدث يوسف الصديق إلى الفتين حديثاً مستفيضاً . . حدثهم عن الإيمان بالله وحده ، أنه لا شريك له فى ملكه . . وعن تعدد الآلهة التى يعبدونها من دون الله أنها لا تنفع ولا تضر ، لكونها من الجمادات ، لا تسمع ولا تبصر ، وبين لهم ضلال معتقدهم الذى ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ، لكونهم تنكروا لعقولهم بعبادتهم آلهة من دون الله لا يملكون ضرراً ولا نفعاً .

كان حديث يوسف الصديق ، موجهاً إلى كل المصريين من خلال الفتين ، وبعد أن أدى ما عليه من حق الدعوة إلى الله ، شرع فى تأويل رؤياهما ، وقد كان الاثنان ينتظران التأويل بفارغ الصبر ، بيد أنهما لبثا يستمعان حديث يوسف إلى النهاية ، لا لكونهما راضين مقتنعين بما يقول . . بل لكونهما مضطرين . . فقال موجها حديثه للأتنين معاً : ﴿ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ . أى أبشر أيها الساقى ، لقد جاءك الغوث والفرج من عند الله ، لسوف تخرج من ظلمات هذا السجن ، وتعود إلى عملك الأول ، ساقياً للملك ، تسقيه الخمر بيدك ، وتكون مقرباً إليه ، مرضياً عنده .

قال القرطبي فى تفسيره : ﴿ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ أى قال للساقى : « إنك ترد إلى عملك الذى كنت عليه من سقى الملك ، بعد ثلاثة أيام . » .

قال البيضاوى فى تفسيره : ﴿ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ يعنى الشرابى ، فيسقى ربه خمرًا كما كان يسقيه قبل ، ويعود إلى ما كان عليه .

قال صاحب تفسیر المنار : ﴿ يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا ﴾ وهو الذى رأى أنه يعصر خمرًا ، ﴿ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ يعنى يربه : مالك رقبته ، وهو الملك ، لا ربوبية العبودية ، فملك مصر فى عهد يوسف لم يدع الربوبية والألوهية كفرعون موسى وغيره ، بل كان من ملوك العرب الرعاة الذين ملكوا البلاد عدة قرون .

ورؤيا الثانى ، الحكم عليه بالموت صلباً

﴿... وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)﴾

عَمَّا رَأَى الْخُبَّازَ قَالَ : كَأَنَّهُ وَحَى مَبِين ٧١
إِنِّى أَرَاكَ تَمُوتُ صَلْبًا ، بِنَسْ صَلْبُ الْمَجْرَمِينَ ٧٢
وَالطَّيْرُ تَأْكُلُ رَأْسَكَ الْمَصْلُوبَ أَكُلَ الْجَائِعِينَ ٧٣
قَدْ تَمَّتِ الْفَتْوَى ، وَتَمَّ الْقَوْلُ كَوْنُوا مَدْرَكِينَ ٧٤

لقد فرح الساقى فرحاً لا مزيد عليه ، ولم لا ؟! فهو سيأرجع عالم الأسوار إلى عالم الحرية . . أما الخباز فإنه لا يزال ينتظر ما سوف ينطق به يوسف الصديق ، وقد كانت عيناه ترمقان يوسف ، بينما ازدادت دقات قلبه . . إنها لحظات انتظار ، كل دقيقة منها تعدل يوماً بأكمله . بعد أن بشر يوسف الصديق ، الساقى ، لم يلبث طويلاً ، بل أردف قائلاً وقد بدت على محياه صرامة القاضى فقال : ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ . فى هذه اللحظة التى نطق فيها يوسف بما نطق ، أسقط فى يد الخباز ، وقد كان يتصور أن رؤياه توحى بشيء سار . . ففوجئ بما خيب ظنه ، وأبطل تصوره .

قال القرطبي فى تفسيره : ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ وأما أنت فتدعى بعد ثلاثة أيام فتصلب ، فتأكل الطير من رأسك . . قال : والله ما رأيت شيئاً ، قال : رأيت أو لم تر ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ .

ثم قال : قال علماؤنا : إن قيل : من كذب فى رؤياه ، ففسرها العابر له ، أيلزمه حكمها ؟! قلنا : لا يلزمه ، وإنما كان ذلك فى يوسف لأنه نبي ، وتعبير النبي حكم ، وقد قال : إنه يكون كذا وكذا ، فأوجد الله تعالى ما أخبر ، كما قال تحقيقاً لنبوته .

فإن قيل : فقد روى أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : إني رأيت كأنى أعشبت ، ثم أجدبت ، ثم أعشبت ثم أجدبت ، فقال عمر : أنت رجل تؤمن ثم تكفر ، ثم تؤمن ثم تكفر ، ثم تموت كافراً .

فقال الرجل : ما رأيت شيئاً ، فقال له عمر : قضى لك ما قضى لصاحب يوسف . . قلنا : ليست لأحد بعد عمر ، لأن عمر كان محدثاً ، وكان إذا ظن ظناً كان .

يوسف يطلب من خراج أن يذكره عند الملك

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾

من بعد ذلك قال للساقى : مقال السائلين ٧٥
اذكُرْ لَدَى مَوْلَاكَ شَأْنِي ، فهو لاه عن يقين ٧٦
إِنِّي سَجِنْتُ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ، عَـلَّـهُ أَنْ يَسْتَبِينَ ٧٧
سَاقِي الْمَلِكِ غَدَا طَلِيقًا ، فـى عَدَادِ الْآمِنِينَ ٧٨
لـكنه نَسِيَ الْوَصِيَّةَ صَارَ فـى الْمَشَاغِلِينَ ٧٩

بعد أن نطق يوسف الصديق بتأويل رؤيا الخباز ، توجه إلى الساقى الذى عرف من تأويل الرؤيا أنه خارج من السجن . . فقال له يوسف : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ يبدو أن الساقى لم ينس فى غمار فرحته أن يقول ليوسف الصديق ما معناه : سلتى ما شئت . . كلفنى بأى أمر أستطيع القيام به لأجلك ، فبادر يوسف قائلاً له . . اذكرنى عند ربك - الملك - ذكراً بأمرى ، فهو يعلم أننى مظلوم ، وسجنت بغير ذنب . . وما منع الملك من إصدار أمره بإخراجى من السجن ، إلا كثرة مشاغله ، فمن ثم نسى قضيتى وشأنى . . فالذى أرجوه منك أن تذكره بأمرى . وخرج الساقى فعلاً ، أصبح طليقاً فى قصر الملك يسقيه الخمر ، قريباً منه ، ساهراً لاهياً معه ليل نهار ، لا يكاد يجد لحظة فراغ يفكر فيها . . لقد أنساه الشيطان أن يذكر للملك قصة يوسف الصديق .

قال ابن كثير فى تفسيره : « لما ظن يوسف عليه السلام ، نجاة أحدهما ، وهو الساقى ، قال له يوسف خفية عن الآخر ، والله أعلم ، لئلا يشعره أنه المصلوب قال له : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ يقول : اذكر قصتى عند ربك ، وهو الملك ، فنسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه بذكر ، وكان من جملة مكاييد الشيطان ، لئلا يطلع نبي الله من السجن » .

قال الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره المنار : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أى عند سيدك الملك ، بما رأيت وسمعت وعلمت من أمرى ، عسى أن ينصفنى ممن ظلمونى ، ويخرجنى من السجن . . وهذا الذكر يشمل دعوته إياهم إلى التوحيد ، وتأويله للرؤيا ، وإنباءهم بكل ما يأتهم من طعام وغيره قبل إتيانه . . وآخره فتواه الصريحة ، فهى جديرة بأن تذكره به كلما قدم للملك شربه . ﴿ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ أى أنسى الساقى تذكر ربه ، وهو أن يذكر يوسف عنده .

يوسف يمكث في السجن بضع سنين

﴿ قَلْبَتْ فِي السِّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ (٤٦) ﴾

إن الذى أنساه شيطان يضل الذاكرين ٨٠
قد ظل يوسف قابلاً فى السجن بضعاً من سنين ٨١
قالوا : قتلك عقوبة ، من عند رب العالمين ٨٢
لسؤاله الساقى فهذا ليس للمتموكلين ٨٣

لقد نسي الساقى أن يذكر يوسف عند سيده الملك ﴿ قَلْبَتْ فِي السِّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ ﴾ أى مكث يوسف فى السجن سبع سنين . . قيل : إنه لبث فى السجن بضع سنين ، لأنه اعتمد ووثق بالمخلوق ، وغفل أن يرفع حاجته إلى الخالق العظيم جل وعلا .

هذا القول ، مردود عليه . . لقد خلق الله الأسباب والمسببات ، وأمر عباده أن يتخذوا الأسباب ، فإذا ما نزلت بالإنسان نازلة ما ، فليتخذ لها الأسباب المتاحة ، ولا ينبغي له أن يتسرب سبباً ، ما دام ذلك السبب مستطاعاً . ويوسف الصديق ما طلب من الساقى أن يذكره عند ربه ، إلا من هذا القبيل - أى الأخذ بالأسباب . ذلك لأنه أدخل السجن بأمر الملك ، وبالتالي فلم يخرج هو من السجن إلا بأمر الملك أيضاً . . وما أمر الملك بإخراجه من السجن ، إلا بعد أن ذكره الساقى بأمره ، وذلك بسبب الرؤيا الفظيعة التى رآها الملك !!

فإذا كان هذا هو ما فعله يوسف ، وهو ما كان ينطوى عليه قلبه وعقله ووجدانه ، فلا يعقل أن يعاقبه ربه على ذلك ، فليس ذلك ذنباً يستحق العقاب عليه . وتمشيًا مع منطق القائلين : بأن الله عاقب يوسف على سؤاله الساقى .

روى أن جبريل عليه السلام جاء يوسف الصديق ، وهو فى السجن معاتباً فقال له : « يا يوسف ! من خلصك من القتل من أيدي إخوانك ؟ ! قال : الله تعالى ، قال : فمن أخرجك من الحب ؟ ! قال : الله تعالى ، قال : فمن عصمك من الفاحشة ؟ ! قال : الله تعالى ، قال : فمن صرف عنك كيد النساء ؟ ! قال : الله تعالى ، قال : فكيف تركت ربك فلم تسأله ، ووثقت بمخلوق ؟ ! قال : يارب كلمة زلت منى ، أسألك يا إله إبراهيم ، وإله الشيخ يعقوب أن ترحمنى ، فقال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث فى السجن بضع سنين . »